

الباب الرابع

جمال الرثاء لابن الرومي

الفصل الأول: جمال رثائه لولده الاوساط من ناحية اللغة

رثاء ابن الرومي قسمان: قسم قاله الشاعر في أهله, و قسم قاله في غير أهله, فأما هذا الأخير ففيه تكلف كثير و هو مجرد من العاطفة. و اما رثاؤه في اهله فشعر صحيح فيه عاطفة و لوعة, و في اثناؤه تحليل بارع. و ابن الرومي في رثائه هذا يحلل ما يشعر هو به في ساعة الرزء و بعدها: ان رثائه صورة صادقة لنفسه في الدرجة الأولى ثم للميت في الدرجة الثانية. و العجيب أن فن ابن الرومي يتغلب على عاطفة حتى في رثاء أولاده,¹ فالأبيات الآتية قالها الشاعر في رثاء ابنه و ستبحثها الباحثة في هذا الباب.

بكاؤ كما يُشفي وإن كان لا يُجدي فجودا فقد أودى نظير كما

عندي

بني الذي أهدته كفاي للثرى.... فياعزة المهدي ويا حسرة المهدي

¹ عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي، ص 347

ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمدٍ
توخّى حمامُ الموت أوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقدِ
على حين شمتُ الخيرَ من لمحاته وآنستُ من أفعاله آية الرشدِ
طواه الردى عني فأضحى مزاره بعيداً على قربٍ ، قريباً على بُعدِ
لقد انجزتُ فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمالُ ما كان من وعدِ
لقد قلّ بين المهديِّ واللحدِ لبثه فلم ينسَ عهدالمهدِ إذضمّ في اللحدِ
ألحّ عليه الترفُّ حتى أحاله إلى صُفرةِ الجاديِّ عن حُمرةِ الوردِ
وظلّ على الأيدي تساقط نفسه ويزوي كما يزوي القضيْبُ من الرندِ
فيا لك من نفس تساقط أنفساً تساقط درٌّ من نظامٍ بلا عقدِ
عجبتُ لقلبي كيف لم ينفطر له ولو أنّه أقسى من الحجر الصلدِ
بوذيّ أنّي كنتُ قد متُّ قبله.... وأنّ المنايا دونه صمدت

صمدي

ولكنّ ربي شاء غير مشيئتي وللرب إمضاء المشيئة لا العبدِ
وما سرّني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليدُ في جنة الخلدِ

ولا بعته طوعاً ، ولكن غُصِبْتُهُ وليس على ظلم الحوادث من مُعدِ
وإني وإن مُتَّعتُ بابني بعده لَذَاكِرُهُ ما حَتَّتِ التَّيْبُ في نَجْدِ
وأولادنا مثلُ الجوارح ، أيها.... فقدناه كان الفاجعَ البيِّنَ الفقدِ
لكلِّ مكانٍ لا يسدُّ اختلاله.... مكانَ أخيه في جَزُوعٍ ولا جَلْدِ
هل العينُ بعدالسمع تكفى مكانه.... أم السمعُ بعد العين يهدي كما تهدي
لعمري لقد حالت بي الحالُ بعده.... فيا ليت شعري كيف حالت به
بعدي

ثكلتُ سروري كلُّهُ إذ ثكلتُهُ وأصبحتُ في لذات عيشي أخوا زُهدِ
أريحانةَ العينين والأنف والحشا ألا ليت شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي
سأسقيكَ ماء العين ما أسعدتُ به.... وإن كانت السِّقيا من العين لأتجدي
أعينيَّ جوداً لي ، فقد جُدتُ للثرى.... بأنفسٍ مما تسألانِ من الرِّفْدِ
أقرةَ عيني ، قد أطلتَ بكاءها.... وغادرتُها أفدى من الأعين الرُّمْدِ
أقرةَ عيني ، لو فدى الحيُّ ميتاً.... فديتك بالحبوبِ أوّل من يفدي
كأنيّ ما استمتعتُ منك بضمّةٍ ولا شمةٍ في ملعبٍ لك أو مهدِ

ألامُ لما أبدي عليك من الأسي وإني لأخفي منه أضعافَ ما أبدي
محمدُ ، ما شيءٌ تُؤهَمَ سلوةً لقلبي إلا زادَ قلبي من الوجدِ
أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أوري من الزندِ
إذا لعبا في ملعبٍ لك لدعا فؤادي بمثل النار عن غير ما قصدِ
فما فيهما لي سلوةٌ بل حازةٌ يهيجانها دوني ، وأشقى بها وحدي
وأنتَ وإن أُفردتَ في دارٍ وحشةً فأني بدار الأُنسِ في وحشة الفردِ
أودُّ إذا ما الموتُ أوفدَ معشراً إلى عسكر الأموات ، أتني من الوفدِ
ومن كان يستهدي حبيباً هديةً فطيفَ خيالٍ منك في النوم أستهدي
عليك سلامُ الله مني تحيةً ومن كل غيثٍ صادقِ البرقِ والرعدِ²
و بعد عرض الأبيات الشعرية المشتملة على رثاء ابن الرومي و نعرف
ان الجمال اللغوي فيها هي الأبيات الشعرية نجدها كما يلي

في البيت الأول نجد كلمة بكاؤ كما و هذه استعارة مكنية, فقد

شبه عينيه بشخصين يخاطبهما و سر جمالها التشخيص.³

² جورج عبد و معتوق, ابن الرومي, ص, 96-91

³ <http://forum.moe.gov.om>

و كذلك في البيت الأولى نجد كلمة يشفي و هذا كناية عن الراحة مع الدموع ؛ لأنها تطفئ نار الحزن ؛ ولذلك تشتد اللوعة عندما تتحجر العين ولا تدمع.⁴

و نجد ايضا كلمة جودا و هذه الكلمة استعارة مكنية ، حيث تخيل عينيه شخصين ، ووجه لهما الأمر وهي امتداد للصورة السابقة⁵ .

و نجد كلمة أودى نظير كما عندي و هذا تشبيها لإبنه في منزلته عنده بعينه ، وهو تشبيه يوحى بشدة الحب⁶ .

و في البيت الرابع نجد كلمة توخى حمام الموت أوسط صبيتي و هذا استعارة مكنية، تصور الموت إنساناً شريراً يختار ضحاياه ، وتوحي بقسوة الموت.⁷

و نجد ايضا في الباب الرابع كلمة واسطة العقد وهذا استعارة تصريحية ، فقد شبه ابنه الأوسط بالجوهرة الثمينة التي تتوسط العقد ،

⁴ <http://forum.moe.gov.om>

⁵ <http://forum.moe.gov.om>

⁶ <http://forum.moe.gov.om>

⁷ <http://forum.moe.gov.om>

وحذف المشبه وصرح بالمشبه به ، وسر جمالها توضيح الفكرة ،
وتوحي بمكانته بين إخوته⁸ .

و في البيت السادس نجد كلمة طواه الردى عني و هذا
استعارة مكنية ، فقد شبه الردى بإنسانيطوي ، وهي توحى بقسوة
الموت ، وتدل على موت الابن واختفائه في قبره⁹ .

و في البيت السابع نجد كلمة لقد أُنجزت فيه المنايا وعيدها و هذا
استعارة مكنية ، تصور المنايا شخصاً ينفذ التهديد¹⁰ .

نجد ايضا كلمة المنايا أخلفت الآمال و هذا استعارة مكنية ، أُخرى
للآمال فيها تشخيص لها بإنسان يخلف الوعد ، وهي توحى باليأس¹¹ .

في الباب التاسع نجد كلمة ألح عليه الترف و هذا كناية عن القصد
والتعمد . ويجوز أن تكون استعارة مكنية حيث شبه الترف بإنسانيلح

⁸ <http://forum.moe.gov.om>

⁹ <http://forum.moe.gov.om>

¹⁰ <http://forum.moe.gov.om>

¹¹ <http://forum.moe.gov.om>

¹² <http://almdares.net>

نجد ايضا كلمة بين حمرة وصفرة و هذا طباق لإظهار المعنى¹³ .

و في الباب الحادى عشر نجد كلمة فيا لك من نفس تساقط أنفسا تساقط در من نظام بلا عقد و هذا البيت تشبيه تمثيلي . فالشاعر يشبه نفس ابنه مع عملية التزييف المستمرة حتى فارقت هذه النفس جسمه على مراحل بالعقد الذي قطع خيطه فتساقطت حباته . و قيمته توضيح المعنى برسم صورة له وفيه إيجاء بالحزن والحسرة . الأسلوب إنشائي للتعجب وإظهار الحزن.¹⁴

في الباب تسعة و عشرين نجد كلمة ألام لما أبدي عليك من الأسى وإني لأخفي منك أضعاف ما أبدي و هذا البيت كناية عن شدة الحزن الذي يعانيه الشاعر.

ونجد ايضا كلمة أبدى و أخفى طباق يبرز المعنى بالتضاد, والشطر الثاني مؤكّد بان للتأكيد على ما يخفيه من الحزن .

¹³ <http://almdares.net>

¹⁴

ألام ، أبدي ، أخفي ، أفعال جاءت بصيغة المضارع لتدل على التجدد والحدوث . البيت أسلوبه خبري لإظهار الحزن والأسى .

في الباب ثلاثون نجد كلمة محمد ما شيء تُوهم سلوةً قلبي إلا زاد قلبي من الوجد والبيت كناية عن عدم نسيانه و شدة الحزن, والبيت كناية عن عدم نسيانه وشدة الحزن.

في البيت أسلوب قصر أدواته النفي و الاستثناء.

و في البيت الإحدى و ثلاثين نجد كلمة أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أوري من الزند و هذا البيت التاسع تشبيه تمثيلي يوحى بشدة الحزن ونار القلب.

الأسلوب في البيت و هو خبري لإظهار الحزن واللوعة

و في البيت الإثني و ثلاثين نجد كلمة إذا لعبا في ملعب لك لدعا فؤادي بمثل النار من غير ما قصد و هذا البيت كناية عن شدة حزنه في البيت تشبيه تمثيلي حيث شبه ولديه عندما يلعبان بنار تحرق قلبه.

في الباب اربعة و ثلاثين نجد كلمة وأنت وإن أفردت في دار وحشة
فإني بدار الأنس في وحشة الفرد و في هذا البيت كنایتان "دار وحشة
" كناية عن القبر و(دار أنس) كناية عن الدنيا والطباق بين دار
وحشة ودار أنس يبرز المعنى ويوضحه بالتضاد.

الفصل الثاني: جمال رثاء ابن الرومي لولده الاوساط من ناحية العاطفة و

الخيال

رثاء ابن الرومي قسمان: قسم قاله الشاعر في أهله, و قسم قاله في غير أهله, فأما هذا الأخير ففيه تكلف كثير و هو مجرد من العاطفة. و اما رثاؤه في اهله فشعر صحيح فيه عاطفة و لوعة, و في اثناؤه تحليل بارع. و ابن الرومي في رثائه هذا يحلل ما يشعر هو به في ساعة الرزء و بعدها: ان رثائه صورة صادقة لنفسه في الدرجة الأولى ثم للميت في الدرجة الثانية. و العجيب أن فن ابن الرومي يتغلب على عاطفة حتى في رثاء أولاده,¹⁵ فالأبيات الآتية قالها الشاعر في رثاء ابنه و ستبحثها الباحثة في هذا الباب.

بكاؤ كما يُشفي وإن كان لا يُجدي فجودا فقد أودى نظير كما عندي

بُني الذي أهدته كفاي للثري فياعزّة المهدى ويا حسرة المهدى

ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمدٍ

توخّى حمام الموت أوسط صبيتي فله كيف اختار واسطة العقْدِ

عمر فروخ, تاريخ الأدب العربي العصر العباسي, ص, 347¹⁵

على حين شمتُ الخيرَ من لمحاته
طواه الردى عني فأضحى مزاره
لقد انجزتُ فيه المنايا وعيدها
لقد قلَّ بين المهديِّ والحدِّ لبثه
وآنستُ من أفعاله آية الرشدِ
بعيداً على قربٍ ، قريباً على بُعدِ
وأخلفتُ الآمالُ ما كان من وعدِ
فلم ينسَ عهدَ المهديِّ إذضُمَّ في الحدِّ
إلى صُفرةِ الجاديِّ عن حُمرَةِ الوردِ
ويذوي كما يذوي القضيْبُ من الرندِ
تساقطُ درٌّ من نظامٍ بلا عقدِ
ولو أنّه أقسى من الحجر الصلدِ
وأنّ المنايا دونه صمدت صمدي
وللربِّ إمضاءُ المشيئةِ لا العبدِ
ولو أنه التخليدُ في جنة الخلدِ
وليس على ظلم الحوادثِ من مُعدِ
لذاكره ما حنتِ التيبُّ في نجدِ
فقدناه كان الفاجعَ البيِّنَ الفقدِ
وأولادنا مثلُ الجوارحِ ، أيها

مَكَانَ أَخِيهِ فِي جَزُوعٍ وَلَا جَلْدٍ	لِكُلِّ مَكَانٍ لَا يَسُدُّ اخْتِلَالَهٗ
أَمِ السَّمْعُ بَعْدَ الْعَيْنِ يَهْدِي كَمَا تَهْدِي	هَلِ الْعَيْنُ بَعْدَ السَّمْعِ تَكْفِي مَكَانَهٗ
فِيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ حَالَتْ بِهِ بَعْدِي	لَعَمْرِي لَقَدْ حَالَتْ بِي الْحَالُ بَعْدَهُ
وَأَصْبَحْتُ فِي لَذَاتِ عَيْشِي أَخَا زُهْدٍ	تَكَلْتُ سُرُورِي كُلَّهُ إِذْ تَكَلَّمْتُهُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي	أَرِيحَانَةُ الْعَيْنِينَ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
وَإِنْ كَانَتْ السَّقِيَا مِنَ الْعَيْنِ لِاتِّجَادِي	سَأَسْقِيكَ مَاءَ الْعَيْنِ مَا أَسْعَدَتْ بِهِ
بِأَنْفَسٍ مِمَّا تَسْأَلَانِ مِنَ الرَّفْدِ	أَعْيَيْ جُودَا لِي ، فَقَدْ جُدْتُ لِلشَّرَى
وَمِنْ غَادِرَتِهَا أَقْدَى مِنَ الْأَعْيُنِ الرَّمْدِ	أَقْرَةَ عَيْنِي ، قَدْ أَطَلْتُ بِكَاءِهَا
فَدَيْتِكَ بِالْحُوبَاءِ أَوَّلَ مَنْ يَفْدِي	أَقْرَةَ عَيْنِي ، لَوْ فَدَى الْحَيُّ مَيْتًا
وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدِ	كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ
وَإِنِّي لِأُخْفِي مِنْهُ أَعْوَافَ مَا أَبْدِي	أُلَامٌ لَمَّا أَبْدِي عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى
لِقَلْبِي إِلَّا زَادَ قَلْبِي مِنَ الْوَجْدِ	مُحَمَّدٌ ، مَا شَيْءٌ تُؤْهِمُ سَلْوَةً
يَكُونَانِ لِلْأَحْزَانِ أَوْرَى مِنَ الزُّنْدِ	أَرَى أَخَوَيْكَ الْبَاقِيَيْنِ كِلَيْهِمَا
فَوَّادِي بِمَثَلِ النَّارِ عَنْ غَيْرِ مَا قَصِدِ	إِذَا لَعِبَا فِي مَلْعَبٍ لَكَ لَدَعَا

فما فيهما لي سلوةٌ بل حزازةٌ يهيجانها دوني ، وأشقى بها وحدي
 وأنتَ وإنْ أفردتَ في دارٍ وحشةٍ فأني بدار الأنسِ في وحشة الفردِ
 أودُّ إذا ما الموتُ أوفدَ معشرًا إلى عسكر الأموات ، أتني من الوفدِ
 ومن كان يستهدي حبيباً هديةً فطيفَ خيالٍ منك في النومِ أستهدي
 عليك سلامُ الله مني تحيةً ومن كل غيثٍ صادقِ البرقِ والرعدِ

و تبين الباحثة رثاء ابن الرومي لولده الاساط من الأبيات السابقة من ناحية العاطفة و الخيال كما يلي, هذا هو اثار العاطفة في التعبير, الأبيات كلها تعبر عن حزن ولوعة ابن الرومي قلبه وانفطاره لفقد ابنه فجاءت الألفاظ هي عباراته معبرة أصدق تعبير عن هذه العاطفة ، فالتعبير بـ(لايجدي)في البيت الاول تعبير عن هول الفاجعة وفقدان الأمل في الصبر ، والتعبير بـ(جودا)في البيت الاول ايضا كذلك لأن الدمع تحجر في عينيه من شدة الحزن ،و(توخي - اختار)و هذا في البيت الرابع تعكسان شدة الحزن والألم الذي يعانیه ، وصرخة التحسر في (فله!) كيف اختار واسطة العقد)في الباب الرابع وفي (طواهاالردى)في الباب التاسع التي توحى بقسوة الموت ، والمقابلة في البيت الثالث إلى غير ذلك من التنوع في الأسلوب بين الخبر والإنشاء لإثارة المشاعر.

من البيت الاول يخاطب عينيه. مقررًا أن البكاء له دور كبير في إزالة الحزن «التطهير النفسي»، ويريح النفس البشرية... ورغم حتميته على رأي الشاعر.. إلا أنه لا يجدي!! لأن البكاء والتفجع لا يعيدان الميت.. والترعة العقلية هن واضحة ومتأثرة بالعلوم الدخيلة مع الثقافة العربية آنذاك كعلم الفلسفة والمنطق.

ثم يعبر الشاعر في البيت الثاني عن غضبته الشديدة على المنايا التي خطفت أغلى الناس إليه عامدة ، فيقول : أن الموت لا يتخطف النفوس اعتباراً (بلا سبب) ، وإنما يُجِيل نظره حتى يختار ، وقد اختار أوسط صبيتي محمداً لعلمه أنه أحب أولاد إليّ ، فيا له من موت قاسٍ ظفر بأجمل حبة في العقد.

من البيت الثالث هو إذا كان الموت قد اختطفه وأخفاه فأصبحت زيارته بعيدة ؛ لأنه في العالم الآخر على الرغم من قرب مثواه (قبره) مني ، فذكره لا تغيب عني على الرغم من بعد جسده .

في البيت الرابع نفذ فيه الموت تهديده باختطافه حينما انقضَّ عليه المرض وافترسه ، وضاعت الآمال والأحلام الجميلة بشفاء الصغير.

من البيت التاسع يعني يصف الشاعر موت ابنه بعد أن اشتد عليه المرض والتزف حتى حول لونه إلى الاصفرار والذبول بعد حمرة الوجه ونضارته . وهنا يستخدم الشاعر الألوان لإبراز فكرته وتوضيحها ، فالأصفر

يدل على الشحوب بعد الترف ،والحمرة تدل على تمام الصحة والنضارة
والجمال.

من البيت الحاد عشر يتعجب الشاعر حين يصف موت ابنه ، متحسرا
وموضحا أن نفسه كانت كأنها نفوس تموت منها واحدة، بعد واحدة أو
كعقد قطع خيطه فتساقطت حباته، واحدة بعد أخرى.

من البيت التاسع و عشرين يخبرنا الشاعر بمدى اللوم الذي يوجه إليه
من الناس على حزنه ا لشديد على فقده ويوضح لنا أن ما يخفيه من الحزن
أضعاف ما يظهر منه.

من البيت ثلاثون يتوجه الشاعر بالخطاب إلى ابنه وكله حزن ولوعة
ويوضح أنه لا يستطيع أن ينساه ،فكل ما توهم أنه سبب في نسيانه يزيد
لوعة قلبه حزنا عليه.

من البيت الحادى و ثلاثين هو على سبيل المثال في أن كل ما توهمه
لنسيان ابنه لم يزد قلبه إلا حزنا فقد توهم الشاعر أن أخويه يكونان سلوة
لقلبه، فإذا هما يشعلان النار في قلبه أكثر من أن يكونا سلوة له وعونا له على
النسيان والجلد.

من البيت الثانى و ثلاثين إنه إذا توهم ابنه الباقيين سيكونان سلوى له
تنسيه ولده الفقيد فهذا لم يحدث، فإذا لعبا في مكان كان يلعب فيه أو

بأشياءه أحرقا قلبه حزنا على فقيدته الذي كان ثالثا لهما ،دون أن يقصدا ذلك.

من البيت الثالث و ثلاثين يصرخ صرخة مجروح الفؤاد فإذا كان ابنه وحيدا في قبره الموحش فها هو الشاعر يشعر بالوحشة نفسها وهو في الدنيا بين الناس.